المشرق

العاديّات الكتابيّة في القرون الاولى للنصرانية

نظر اثري للاب لويس شيخو اليسوعي (*

انَّ العاديّات الكتابيَّة التي استخرجها الاثريُّون في الازمنة الاخيرة من بطون الارض قد اضحت علماً جديداً يتَّسع كلّ يوم نطاقهُ ويتَّخذهُ المؤرخون كسندٍ وطيد لتعريف ما فاتنا من الاخبار السالفة . وكثيراً ما اصلحوا بها مزاعم الكتبة الاقدمين وزيَّفوا اوهامهم او اثبتوا اقوال البعض منهم دون البعض الآخر لأنَّ هذه الآثار تنطق بلسان حالها عن شؤون الذين دوَّنوها وقد شهد على صحتها كل قاصٍ ودانٍ اذ رُقمت في الغالب على الحجارة او نُقرت في المعادن كالحديد والشبه او رُسمت على الخزفيَّات والواح الخشب او كُتبت على البردي والرق فبقيت مطمورةً بين الاطلال حتى جدَّد حياتها ارباب الحفريات وبعثها من دفائنها الباحثون عن العاديَّات

وليس كلامنا هنا عن الكتابات الاشوريَّة ولا عن الآثار المصريَّة الهيروغليفيَّة التي كشفت للعلم عالماً جديداً لا بل نضرب صفحاً عن الكتابات اليونانيَّة واللاتينيَّة التي قليت اليوم ظهراً لبطن تاريخ اليونان والرومان فكادت تقرّب الينا عهدهم فتوقفنا على ادقّ احوالهم في عيشتهم الاهليَّة وحياتهم الاجتماعية . وفي عاداتهم

(*) اخص ما ورد في هذه المقالة قد نقلناه عن فصل مطوَّل كتبهُ حضرة الاب لويس جلابرت (P. L. Jalabert) اليسوعي من اساتذة كليتنا في معجم الدفاع المسيحي الذي يُعنى بنشره الاب هـ. داليس اليسوعي في باريس (Dictionnaire d'Apologétique chrétienne, art,. EPIGRAPHIE, pp. 1403-1458).

ومعاملاتهم المختلفة في كلّ امور دينهم ودنيـاهم فانَّ معجم العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة الذي وصفت اقسامهُ مجلَّة المشرق كلُّهُ مبنيٌّ على هذه الاثريَّات الذي يزيد اليوم عددها على ثلاثمائة الف كتابة بين صغيرة وكبيرة قصيرة وطويلة وجدوها في كلّ انحاء الدولة الرومانيَّة القديمة حتى اقاصي تخومها المعروفة

وانَّما اقتصرنا في هذه المقالة على عاديَّات أُخرى اهمّ واجدر بالاعتبار نزيد بها العـاديَّات المسيحيَّة اليونانيَّة واللاتينيَّة الراقية الى قرون النصرانيَّة الاولى منذ عهد رسل السيّد المسيح الى الهجرة وظهور الاسلام . وهذه الكتـابات المنبثة من مكامنها بعد انحجابها عن العيان مدَّة اجيال طويلة قد بلغ عدد مجموعها اليوم نحو الخمسين الفاً . وهو لعمري عدد وافر وان كان دون عدد العاديَّات الوثنيَّة لأنَّ الكتابات الوثنيَّة سبقت عهـد النصرانيَّة بنحو ٣٠٠ سنة ثمَّ لا عجب في توفُّر الكتابات الوثنيَّة وقلَّة الكتابات النصرانيَّة بعد ظهور النصرانيَّة الى قسطنطين الكبير لأنَّ امور الدولة كانت كلّها في ايدي القياصرة وكان النصارى مضطهدين ينبغي عليهم ان يعيشوا في الخمول او يحتجبوا عن نظار اعدائهم في الدياميس او في الاماكن المعتزلة فما كانوا ليفكّروا في تدوين مآثرهم او تعريف شؤونهم لئلَّا يقف خصومهم على تلك الآثار فيتَّخذونها حجَّة عليهم لمصادرتهم

ومن المرجَّح ايضاً ان قسماً من الكتابات المنسوبة الى الوثنيين بعد المسيح ليست لهم بل لنصارى لم يريدوا ان يُشعروا بدينهم تجرُّوا في كتابتها مجرى الوثنيين واتَّخذوا عباراتهم الرسميَّة متحاشين فقط ما يدلّ على الشرك والوثن . وهذا الامر قد لحظهُ ائمَّة الاثريين كامام علماء الماديَّات النصرانيَّة الكاثليـار دي روسي (J. B. de Rossi) وفرنتس كومون (F. Cumont) والاثري الانكليزي رمساي (Ramsay) وغيرهم واستدلُّوا عليهِ ببعض الادلَّـة اللطيفة المؤيدة لرأيهم كاستبدال النصارى بعض الفاظ بما هو اقرب الى معتقدهم فمن ذلك لفظة (κεῖται) اليونانيَّة المرقومة على قبور الوثنيين بمعنى امتدَّ وانطرح فالنصارى جعلوا بدلاً منها κοιμᾶται اي رقَدَ دلالةً على رجائهم بالقيامـة . وكذلك ترى الوثنيين يختمون كتاباتهم على القبور بطلب العافية والصحَّة لمواتهم χαῖρε, ὑγίαινε فالكتابات النصرانيَّة ابدلتها بطلب السلام او سلام الله للميت . وغير ذلك من الدلائل الخفيَّة

اخصُّها الثاب نصرانيَّة كقارئ او كاهن او اسقف ممَّا لا يمكن نسبتهُ الى الوثنيين

فبعد هذه المقدَّمات ها نحن نذكر اوَّلًا تاريخ العاديَّات النصرانيَّة ونبين خواصَّها وميزاتها ثمَّ نعرِّف مضامينها وما يُستفاد منها لاثبات الدين المسيحي

١ تاريخ العاديَّات النصرانيَّة وخواصُّها

خلَّفت النصرانيَّة في الشرق والغرب آثارًا جمَّة في القرون النصرانيَّة الاولى ولا سيَّما بعد قسطنطين لكنَّ زحفات البرابرة في الغرب والفتوحات الاسلاميَّة في الشرق طمست كثيرًا من تلك المآثر وتبعتها الحروب الطاحنة التي انتشبت في الاعصار الوسطى فاندفن معظم العاديَّات النصرانيَّة في الردوم والاخربة . وبقي الامر على ذلك حتى القرن السادس عشر حيث بعث الله العقول من سِنَتها فجرت نهضة جديدة دعت ارباب البحث الى التفتيش عن العاديَّات القديمة . وبينما كان اكثرهم يطلبون الآثار الوثنيَّة صرف غيرهم النظر الى الاثريَّات النصرانيَّة فلم يخب فيها أملهم

وكان اوَّل ما اخرجوا منها الى عالم الكون عاديَّات دياميس رومية . وقد سبقت مجلَّتنا هذه وذكرت سنة ١٩١٠ (ج ١٣ ص ١٦١—١٧٣) خلاصة تاريخها ومحتوياتها منذ وقف عليها لاوَّل مرَّة القانوني الشهير بوزيو (A. Bosio) المتوفَّى سنة ١٦٢٩ حتى هذه السنين الاخيرة التي توالت فيها الاكتشافات الاثرية على يد دي روسّي وتلامذته . فنُحيل القرَّاء اليها انفةً من التكرار

على انَّ تلك المآثر الكتابيَّة لم تكن منحصرةً في عاصمة الدولة الرومانيَّة بل انتشرت انتشار النصرانيَّة نفسها اي في كل البلاد المعمورة والعالم اجمع كما كان امر المسيح تلاميذهُ بقولهِ لهم : « اذهبوا الى العالم كلهِ وتلمذوا كلَّ الامم »

فلا غرو ان ظهرت ايضاً في اقطار متعدِّدة بقايا تلك العاديَّات ولا سيما الكتابات المنبئة بشؤون النصارى فوجدوا كثيرًا منها في انحاء اوربَّا كايطالية وغالية واسبانية وبريطانية والمانية والنمسة حتى روسية الجنوبيَّة ثم جهات البلقان واليونان . ومنها في افريقية كمصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومرَّاكش الى مجاهل افريقية واعالي النيل والسودان والحبش . ومنها خصوصاً في آسية كبلاد الشام والاناضول وارمينية والعراق وفارس وبوادي جزيرة العرب حتى فارس والهند

وتركستان والصين كما ظهر في البعثات الاخيرة التي قام بها العلماء الاوربيُّون في العُشر الاوَّل من هذا القرن الجاري . وكفى بذلك دليلًا ساطعاً على ان انوار الدين المسيحيّ عمَّت كافَّة اصقاع العالم القديم

وهذه الكتابات تمتدُّ من اواخر القرن الاوَّل للميلاد ثمَّ تتوالى جيلًا بعد جيل حتى القرن السابع او الثامن وما جاء منها بعد ذلك العهد لا ينظمونهُ في عداد الكتابات القديمة بل يدخلونهُ في جملة كتابات طور احدث وهو طور القرون الوسطى الخارج عن نطاق بحثنا

وليس لتلك الكتابات كلها تاريخ يعيّن زمانها لأنَّ قسماً كبيرًا منها خالٍ من التاريخ . اما المؤرخة فتارة تؤرخ بتعيين زمن قناصل رومية او بذكر الملوك الذين رُقمت الكتابة على عهدهم كملوك الرومان والفرنك والقوط . وقد جاء في كثير منها اسم بابا رومية الجالس على كرسي بطرس في زمنها . والكتابات الشرقيَّة مؤرخة بتاريخ الاسكندر او اليونان (اي ٣١٢ ق م) ولبعضها تواريخ محليَّة كتاريخ انطاكية (٤٩ ق م) وتاريخ بصرى (١٠٦ ب م) وشاع في الكتابات المصريَّة تاريخ الشهداء او تاريخ ديوقلطيانوس (٢٨٤ م) كما فضَّل السريان وغيرهم تاريخ العالم على مقتضى الحساب البوزنطي الذي يجعل مولد المسيح سنة ٥٥٠٨ لآدم . ويبلغ عدد الكتابات اليونانيَّة المؤرخة نحو ١٤٠٠

اما الكتابات الخلو من التاريخ فاكثر عدداً وهي تنيف على عشرة آلاف بين الكتابات اليونانيَّة . وقد تمكَّن الاثريُّون من تعريف زمن معظمها بتدقيقهم في البحث وذلك اما بدرس صور حروفها وطريقة كتابتها لأن هيأة الكتابة اختلفت بين جيل وجيل واما برسومها ورموزها كالصليب والانجر والسمكة والحمامة والكأس وسعف النخل واوَّل حروف اسم المخلّص فانَّ لهذه الرسوم واشكالها تاريخاً يُعرَف به تاريخ الكتابة تقريباً . فانَّ الانجر مثلًا هو من اقدم الرموز التاريخيَّة النصرانيَّة في بعض البلاد . والحمامة لم تظهر قبل السنة ٣٧٨م وقس عليه بقيَّة الرموز . ومثلها الأعلام والالقاب استدلُّوا بها على زمن بعض الكتابات

ومما تقرَّر لدى الاختصاصيين من علماء الآثار انَّ النصارى في صورة كتاباتهم القديمة قد جروا على طريقتين مختلفتين الطريقة الأولى سبقت لعهد قسطنطين والثانية

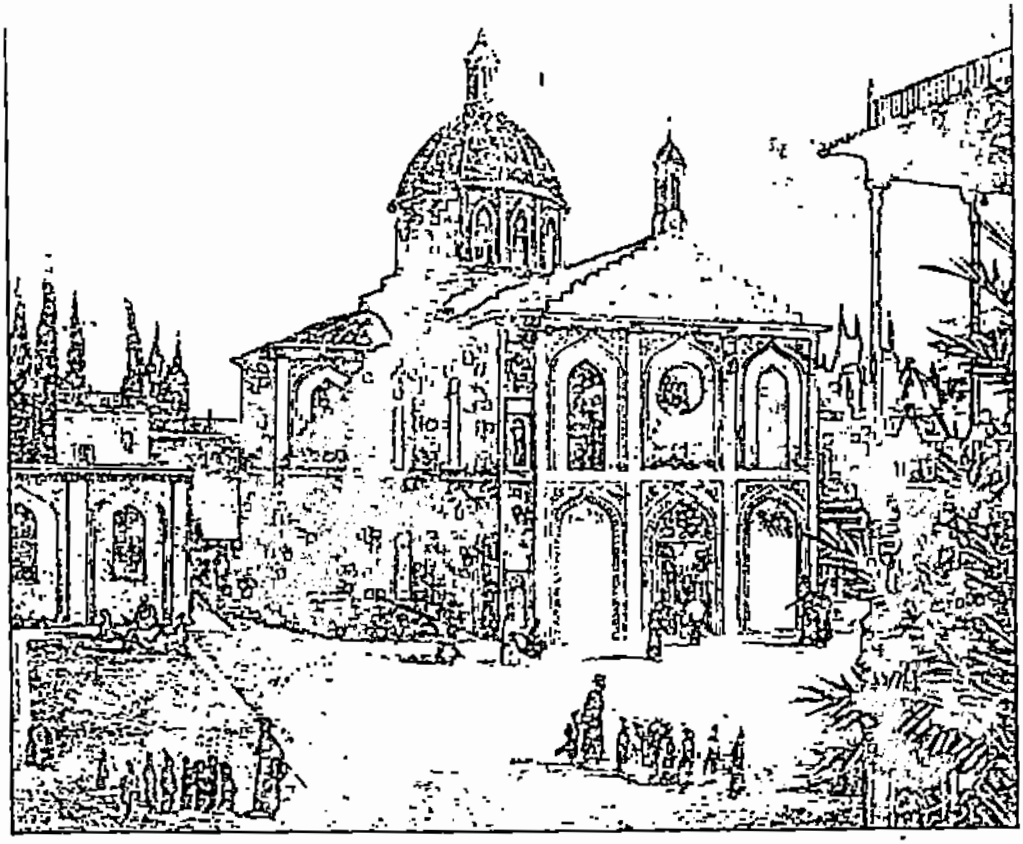

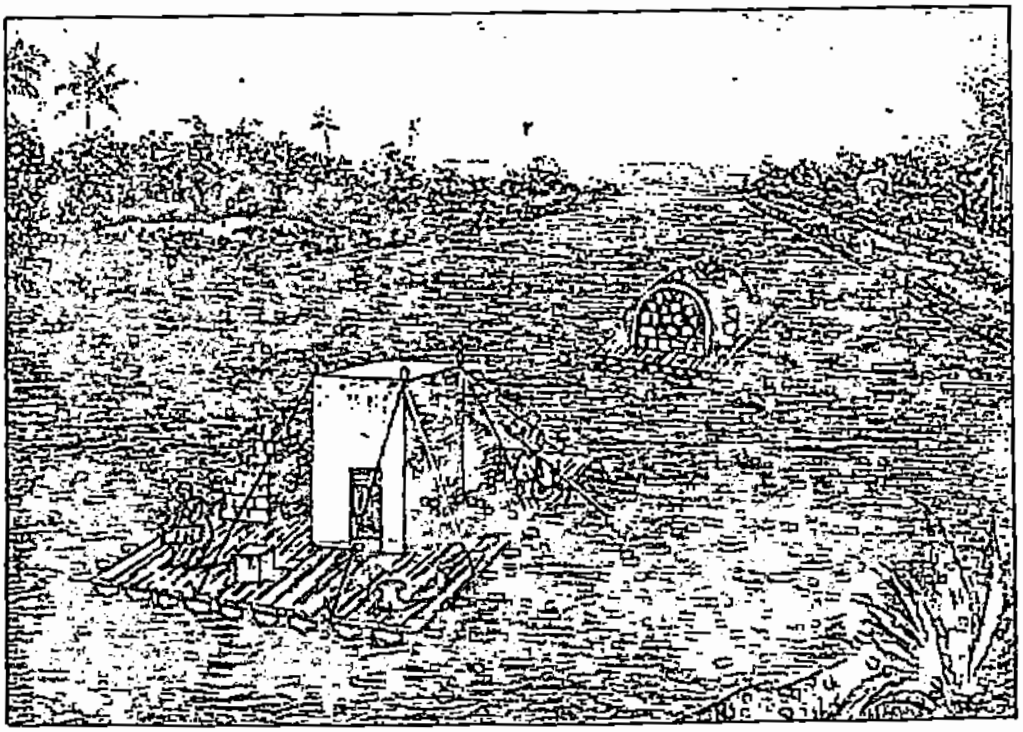

١ كنيسة الآباء الكرمليين ومدرستهم في بغداد ٢ الاطراف (الكلكات) على دجلة

تبعتهُ . ففي الاولى مسحةٌ من السذاجة والبساطة لا تُنكَر وهذه الكتابات غالباً قصيرة لا تزيد عن الفاظ قليلة لاسيما الكتابات التي على مدافن الموتى فانها تقتصر على اسم الميت مع بعض الرموز النصرانيَّة فقط ومنها ما يزيد على اسم الفقيد تعريف سنهِ ويوم وفاتهِ ودفنه وتُضاف في غيرها ادعيةٌ للميت غاية في البساطة كقولهم : حييتَ في الله . او حييتَ في المسيح . او في السلام . او مع القديسين . او في الراحة والهناء . وقد قُرئ على بعض المدافن : صلِّ لاجلنا . او برَّد الله روحك (١

اما الصنف الثاني بعد قسطنطين فانهُ اغزر مادةً واوضح معنىً لا سيما الكتابات الضريحيَّة اذ لم يعد النصاري يخافون الاعلان بدينهم فيقدّمون على هذه الكتابات مقدّمات كهذه « في هذا الضريح يرقد بسلام فلان » ثم يعدّدون اسماء الميت والقابهُ ويثنون على فضلهِ وصلاحهِ كقولهم "فلان ذو الحكمة الباهرة والنفس الطاهرة والقدوة الحسنة » وما شاكل من المديح . أما الرموز فيتعاضون عن خفيّها بجليّها كالصليب او اسم السيد المسيح المختصر كما ورد على راية قسطنطين

ومن غريب ما لحظهُ الاثريُّون انَّ الكتابات الدفنيَّة والرموز النصرانيَّة التي وُجدت في بلاد غالية وبلاد شمالي افريقية اشبه شيءٍ بالكتابات الرومانيَّة التي سبقت في الديامس فكأنَّ نصارى تلك البلاد كانوا يتقلّدون العادات الجارية في رومية وكفى بذلك دليلًا على نفوذ سلطة الكنيسة الرومانيَّة ورئاستها . وهذا ما كشف عنهُ النقاب المسيو مونسو (Monceaux: *Hist. littér.*, II. p. 121-125) فانهُ قد احصى ٦٠٠ قطعة من كتابات نصرانيَّة راقية الى القرن الثالث للمسيح وجدوها في المغرب وجهات البربر وفي قرطجنَّة فمعظمها على صورة الكتابات التي وُجدت على قبور شهداء الديامس اللهمَّ الا مميّزات طفيفة تُعرَف بها الكتابات الافريقيَّة

ويؤيد ذلك انَّ ارباب الآثار وجدوا في عدَّة امكنة ابياتاً شعريَّة نظمها احد شعراء رومية النصاوى ليزين بها قبر احد احبار الكنيسة . فشلعت الابيات في انحاء أخرى ورسموها على قبور غيرهم مع تغيير اسم الميت رغماً عما يصيب الابيات من خلل الوزن بهذا التغيير

---

١) اطلب Monumenta Eccl. liturg. p. CI-CVI et CXXIV-CXXXI et KAUFMANN : Handbuch, p. 211 seqq

وما قرَّرهُ المسيو مونسو عن كتابات شمالي افريقية قد عنمهُ اثريٌّ آخر من ائمة ارباب العاديات النصرانيَّة المسيو لوبلان (١ في كتبهِ المتعدّدة فـاثبتهُ عن معظم الكتابات الاثريَّة التي اكتشفوها في انحاء اوربَّة . والظاهر انَّ نصارى الاقاليم الغربيَّة كانوا استنسخوا الكتابات التي وجدوها مرقومة في رومية على ابنية النصارى فحذوا حذوها في بلادهم

هذا ما ثبت اليوم عن الكتابات النصرانيَّة في الغرب امَّـا الكتائس الشرقيَّة فلبُعدها عن مركز الوحدة الدينية لم تلتزم في كتـاباتها طريقةً واحدة فتجد اختلافاً كبيراً بين ما وجدوهُ منها حيث يلوح لاوَّل وهلة ان كاتبيها تبعوا في تدوينها ما جادت بهِ قريحتهم او ما سوَّلتهُ لهم ظروف الامكنة والازمنة . وان قابلت بين الآثار الكتابيَّة النصرانية التي جمعهـا من الشام وفلسطين ومصر وبلاد العرب امكنك من ساعتك ان تعرف الجهات التي كُتبت فيها . وربَّما امتازت كتابات اقاليم القطر الواحد كاقاليم الاناضول واقاليم مقدونية واليونان التي يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يُذكر

ويظهر الفرق المذكور في بعض الاحيان حتى بين ايالة وايالة وبين مدينة ومدينة وبين قرية وقرية فيميّز الاثريّ دون صعوبة لهجة كلّ بلد وطريقة كتابتهِ واشاراتهِ الخاصَّة حتى يستطيع ان ينسب كل كتابة الى اصلها والمكان الذي كُتبت فيهِ سواء كانت في انحاء فلسطين او الشام او في حوران او احدى مدن مصر مع تعيين زمانها تقريباً

فهذه بعض خواصّ امتازت بها الكتابات النصرانيَّة في القرون الاولى . فهلمَّ بنا الآن نذكر فوائدها التي رفعت قدرها في اعين ذوي الاعتبار

٢ الفوائد المقتبسة من اكتشاف الكتابات النصرانية القديمة

قلنا سابقاً انَّ العاديَّات اجمالاً من ادلّ الشواهد على تاريخ القدماء واحوالهم في دينهم ودنياهم . وهذا القول يصدق عن العاديَّات المسيحيَّة كما يصحّ في غيرهـا

(١ راجع (Le Blant : *Manuel*, p. 75; *Recueil*, II, p. 152-157; *L'Epigraphie Chrét.*, p. 48-51)

ايضاً . فكل من يسرح النظر في تلك الآثار الكتابيَّة لا يلبث ان يشاهد الدين النصرانيّ باسره قائماً بازائه في حالة قشيبة لم تحكها يد الاجيال ولكن نسجتها ايدي تلامذة المسيح الاوَّلين واتباعهم الذين اخذوا عنهم التعاليم الدينيَّة فلا يستطيع احد ان ينسب اليهم تزويراً او تمويهاً حتى اذا قابل بين نصرانيَّة تلك الاجيال السالفة وتعاليمها وآدابها الحاليَّة وجد بينهما الشبه التام فاضطرَّ الى ان يقرّ بان الدين الكاثوليكي ثابت المعتقد لم يختلف البتَّة مع كرور الدهور وتوالي العصور . وبياناً لذلك ها نحن نفحص بعض ما ابدتهُ تلك الكتابات القديمة من الشواهد تأييداً لمعتقدات الكنيسة فيرى انَّ « يسوع المسيح هو هو امس واليوم والى مدى الدهور » (عبر ١٣ : ٨) وانَّ كنيستهُ الكاثوليكيَّة التي انشأها لم تجد ذرَّةً عن تعاليمهِ وتعاليم رسلهِ فسبحان الذي وفَّر للعالم اسباب الايمان وبنى دينهُ على صخرة لا تتزعزع

اوَّلاً الكتابات الاثريَّة والاسفار المقدَّسة

واوَّل ما يُستفاد من الكتابات الاثريَّة النصرانيَّة شرقيَّةً كانت او غربيَّة وفرةُ منقولاتها عن الاسفار المقدَّسة من العهدين العتيق والجديد . فالنصوص المنقولة عن العهد العتيق اكثرها من سفر المزامير (ولا تقلّ عن خمسين مزموراً) ومن الاسفار المعروفة بالحكميَّة لموافقة هذه الاسفار للأدعية وابراز عواطف النفس وعادةً لا تزيد هذه الشواهد على ذكر آية او آيتين الَّا البعض منها فهي اطول فانَّ احدى كتابات قبرس الواقية الى القرن الرابع نقلت المزمور ٢٩ باسره (Bull. de Corr. Hellén., 1896, p. 346-351) كذلك وجدوا في رودس صكّاً مختوماً من القرن الثالث او الرابع يحتوي المزمور ٨٠ الَّا خاتمهُ (Akad. d. Wiss. z. Berlin, 1898. p. 582) ووجدوا على عتبة باب كنيسة قديمة في شمالي سوريَّة عدَّة آيات منقولة عن المزامير وعن سفر نشيد الانشاد (Prentice and Littmann, PAE. n°s 839-840) مشروحةً بمعناها الرمزيّ عن بيعة الله عروس الروح القدس وفي العاديَّات المكتشفة في مصر وافريقية وسوريَّة شواهد أخرى من سفر الحكمة وامثال سليمان وابن سيراخ

وكذلك العهد الجديد فقد نقلوا عدَّة آيات منهُ بينهما نصوص من الاناجيل الاربعة القانونيَّة وآيات من جميع رسائل القديس بولس الرسول رُقمت على حجارة

قديمة وخزفيات ورقوق وبرديّ في بلاد الغرب والشرق معاً لاسيما سوريّة ومصر وشمالي افريقية فهذه المنقولات تشهد بلسان حالها على شيوع الكتب المقدّسة في تلك البلاد وتثبت شبهها التامّ جوهرياً بالاسفار التي نتداولها اليوم فتسقط حجّة المدّعين بأنّ النصارى حرّفوا تلك الكتب المنزلة او تلاعبوا فيها. فسبحان الذي أفحم الخصوم بهذه الاكتشافات العجيبة

وهذه الشواهد منقولة عن نسخة الكتب المقدّسة اليونانيّة المعروفة بالسبعينيّة الراقية الى القرن الثالث قبل المسيح وقد استفادوا منها تصحيح بعض روايات مصحّفة بسهو النسّاخ فمن ذلك انّ ثلاث كتابات حجريّة وُجدت في شمالي سوريّة تروي كلام الملائكة في مولد المسيح (لوقا ٢ : ١٤): «المجد لله في العُلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرّة» فقولهُ المسرّة ورد في الكتابات «εὐδοκία» (اي مسرّة الله) بدلاً من «εὐδοκίας» التي تغيّر شيئاً من المعنى فكانوا يشرحونها بقولهم: وعلى الارض السلام للناس ذوي المسرّة (بالله). فتبيّن المعنى وزال الالتباس

ومما استفادوهُ ايضاً بالمقابلة بين شواهد الكتب المقدّسة الاثريّة والمكتشفات العاديّة الحديثة انّ لُغة العهد الجديد وهي اليونانيّة ليست كما زعموا لهجةً بربريّة خاصّة برسل المسيح مبتذلة باصلهم الساميّ ولكن تحقّقوا انّ الحواريين في كتاباتهم التي خلّفوها من بعدهم انّما نطقوا بلهجة زمانهم اي باليونانيّة الشائعة في ذاك الزمان بين العامّة فتحاشوا اللغة الفصحى التي كان الادباء يتأنّقون بها في كلامهم مع علية الناس وفضّلوا عليها اللغة الدارجة اقربها من فهم العموم. والدليل على شيوع هذه اللغة بين اليونان في ذلك الزمان انّهم وجدوا في النيوم خزانةً من اوراق البرديّ ومن الخزفيات عليها الوفٌ من الكتابات اليونانيّة تحتوي على رسائل وصكوك ومعاهدات وفذالك ووصول كلّها من هذه اللغة المستحدثة التي كتب بها تلاميذ المسيح اسفار العهد الجديد فجاءت هذه المقابلة مثبتة اصحّة الاسفار الالهيّة كاشفة لبعض معاني الفاظها المستغلقة التي كانوا قبلاً يدّعون انّها لهجة خاصّة باليهود الساميين. ومنّ بيّنوا ذلك بتآليف خاصّة العلماء الانكليز والالمان (واكثرهم من البروتستانت) كثاير (Thayer) وكنّدي (Kennedy) في كتابهِ عن اصول يونانيّة العهد الجديد (*Sources of New Testament Greek*) وديسمان (Deissmann)

ولخت (Licht) وغيرهم الذين بيّنوا اصول نيف وخمسمائة كلمة كانوا قبلاً يزعمون انها من مخترعات كتبة العهد الجديد لجهلهم اللغة اليونانيّة فقرّروا انها كانت موجودة في الآثار اليونانيّة المكتشفة في الفيّوم وغيرها من النواحي

والامثلة المؤيدة لذلك كثيرة منها لفظة الاخ (ἀδελφός) فانهم كانوا يزعمون انها لا تدلّ على غير الشقيق وانّ معناهـا المجازي اي عضو الشركة لم يعرفهُ غير كتبة العهد الجديد. فبيّنت الكتابات المدنيّة انّ اللفظة كانت معروفة بمعنيَيهـا في ايام الرسل

ومن ذلك لفظة (ἱλαστήριον) التي لم يكن يُعرَف لهـا غير معنًى واحد اي غطاء تابوت العهد كما ورد في الترجمة السبعينيّة. امّا بولس الرسول ففي رسالتـه الى الرومانيين اتّخذ هذه الكلمة بمعنى «الفدى» او الكفّارة فقـال (٣: ١٤) عن المسيح «ان الله جعلهُ كفّارةً بالايمان بدمهِ لاظهار برّهِ بمغفرة الخطـايا» فظنّوا انّ القديس لم يُحسن اختيار الكلمة. لكنّ الكتابات المكتشفة في قوص وفي الفيّوم اوردت الكلمة بالمعنى الذي ذكرهُ بولس. وامثال اخرى كثيرة

وقد انجلت بفضل هذه الاكتشافات عدّة مشاكل كتابيّة كان خصوم الكنيسة يصوّبونها على الدين كسهام نافذة وقد اضحت اليوم معدودة في جملة السهام الطائشة فمن ذلك اكتتاب المسكونة الذي ذكرهُ القديس لوقا في الفصل الثاني من انجيلهِ وجعلهُ قبل موت هيرودس وولاية كيرينيوس على سوريّة فانّ العلماء حاولوا تخطئة الانجيليّ في ذكر هذا الواقع استنادًا الى تاريخ يوسيفوس اليهودي الذي سكت عن الامر وكذلك احتجّوا بكتابة مدينة انقرة التي ورد فيها ذكر اعمال اوغسطوس قيصر ولا ذكر هناك لهذا الاكتتاب. على انّ هذه الحجج وغيرها كان جمعها شُورر (Schürrer) في تاريخ اليهود قد بطلت الآن باكتشاف عدّة آثار بيّنت صحّة رواية الانجيل من جملتها كتابة لاتينيّة وُجدت في بيروت وهي اليوم في البندقيّة (CIL, III, 6687) تذكر اكتتاباً جرى في عهد كيرينيوس غير الاكتتابات المذكورة في تاريخ يوسيفوس وفي اثر انقرة. ومنها كتابة اخرى لاتينيّة وُجدت في تيفولي قريباً من رومية تذكر تعيين كيرينيوس كوالٍ على سوريّة مرّتين وبذلك تزول مشاكل أخرى كانوا ينسبون فيها الغلط الى لوقا زورًا

ومما عدُّوهُ من اوهام القديس لوقا قولهُ (٣ : ١) عن لوسانياس انهُ كان رئيس رُبع على ابيلينية في بدء بشارة يوحنا المعمدان ودعوة المسيح فقالوا انَّ لوسانياس هذا الذي جعلهُ لوقا ٣٠ سنة بعد المسيح انما عاش ٣٠ سنة قبل المسيح فيكون لوقا غلط بستين سنة في تاريخهِ. لكنَّ هذا الاعتراض قد فنَّدتهُ الكتابات المكتشفة حديثاً اخصُّها كتابة وجدوها في أبيلا في جوار دمشق (CIG, 4501) ذكرت لوسانياس آخر عاش في عهد طيباريوس كما روى الانجيليّ

وكم وجدوا كتابات أخرى رفعت في اعين العلماء الاثبات رتبة القديس لوقا فصاروا يعدُّونهُ من اصدق المؤرخين. وكثير من هذه الكتابات قد اكتشفوها في الشام كما تر يبرد (Clermont-Ganneau,RAO, 414-429) واثر فقرا (Jahrb d. k. d. arch. Inst., XVII, p. 107) وفي كليهما إثبات لما رواهُ لوقا عن اغريبا الثاني وبرنيقة. هذا فضلاً عما عثروا عليه من الكتابات في انحاء الاناضول التي تؤيد رواية الانجيليّ المذكور في كتاب اعمال الرسل حتى صار اعداء الدين نفسهم يدافعون عن محتويات هذا الكتاب وعن صدق نسبتهِ الى لوقا (راجع في المشرق ١٥ : ٢١ مقالة حضرة الاب ابراهيم حرفوش في سفر الاعمال)

ثانياً الكتابات وتاريخ الكنيسة

كنَّا نعرف من رواية المؤرخين الكنسيين ومن تآليف قدماء النصارى انَّ كنيسة السيد المسيح انتشرت بنوع غريب منذ ظهورها في كلّ اقطار العالم فجاء اكتشاف العاديات النصرانيَّة في معظم انحاء الدولة الرومانيَّة مؤيداً لهذا الواقع التاريخي ومزيقاً لمزاعم الملحدين الذين عوَّلوا على معارضة اولئك المؤرخين مدَّعين انهم بالغوا في وصف انتشار الكنيسة لغايات. فالكتابات الاثريَّة قامت من لحدها لتشهد بصحَّة اقوال الرواة الكنسيين ولو اردنا لرسمنا خارطةً واسعة تدلّ على البلاد والمدن والقرى التي ظهرت فيها تلك الكتابات النصرانية فيأخذ العجب كلّ القرَّاء لما يرونهُ من امتداد الكنيسة الى كل انحاء المعمور حتى لم يكد يخلو من بعض اعضائها اقصى مراكز الدولة الرومانيَّة ويتحقَّقون فعلاً ما كتبهُ ترتليانوس المعلم في دفاعهِ عن النصارى في اوائل القرن الثالث حيث قال للوثنيين: « اننا ابناء الامس وها نحن نملأ مدنكم وقراكم وشوارعكم ومنتدياتكم حتى لو تواريتا لخفتم من عزلتكم

وانفرادكم ». ومن رسموا خارطةً كهذه الاثريُّ الفرنسويّ لو بلان (Le Blant) لكنَّهُ اكتفى بخارطة بلادٍ غالية وحدها. فيستدلُّ منها الناظر على بسطة النصرانيَّة في تلك المواطن. فما قولنا لو فعل مثل ذلك عن اسبانية وايطاليـة وصقلية وانحاء البرتان وبلاد آسيـة والشام وعربية ومصر وما بين النهرين حتى العراق وفارس وتركستان. فالحقّ يقال انَّ هذه الاثريات احسن شاهد عن شيوع النصرانية وتحقيق كلمة السيد المسيح لتلاميـذهِ (اعمال ١: ٨): « ستنالون قوَّة الروح القدس الذي يحـلُّ عليكم فتكونون لي شهودًا في اورشليم وجميع اليهوديَّة وفي السامرة والى اقصى الارض »

ومما يزيد هذه المكتشفات اعتبارًا ويوليها قدرًا جليلًا انَّهـا لا تشهد فقط على انتشار الدين المسيحي بل تثبت ايضاً وحدة نظامهِ العجيب الذي وصفـهُ بولس الرسول حيث قال في رسالتهِ الى اهل افسس (٤: ٥): « للجميع ربٌّ واحد وايمان واحد ومعموديَّة واحدة » وقد نقلت احدى كتابات سوريَّة آية الرسول دلالةً على هذه الوحدة. ومعلوم انَّ الوحدة المذكورة لا تقوم دون رئاسة وخضوع كل الاعضاء الى رأس واحد وليس في الكنيسة رأس آخر الَّا الذي اقامهُ السيّد المسيح اعني بطرس حامل الرسل وخلفاءهُ على كرسي رومية

ومن ابدع ما اكتُشف في عهدنا تأييدًا لهذه الحقيقة كتابة حجرية وجدها سنة ١٨٨٣ قريباً من سنّاد في بلاد فريجية احد علماء البروتستانت و. م. رماي (W.M. Ramsay, *Cities*, p. 722-729) دعاها العلماء « ملكة الكتابات النصرانيَّة » وهي اليوم في متحف الفاتيكان وقد اهداها السلطان عبد الحميد الى قداسة الحبر الاعظم لاون الثالث عشر في نسبة يوبيلهِ الاستقفي. وهذه الكتابة راقية الى اواسط القرن الثاني للمسيح كتبها ابرقيوس اسقف هيرابوليس لتوضع كصحيفة ضريحيَّة على قبرهِ وهي تحتوي ٢٢ بيتاً من الشعر اليوناني ذكر فيها ابرقيوس صفة نفسهِ « كتلميذ راعٍ صالح ارشدهُ الى الايمان وفهّم الاسفار المقدسـة » ثمَّ يروي سياحته الى بلاد مختلفة كسوريَّة وما بين النهرين حتى نصيبين مـا وراء الفرات ويخصص بالذكر « رومية العظمى التي وجد فيها ملكةً جليلةً لابسة حللًا ذهبيَّة وحذاء مرصَّعاً بالذهب والشعب التابع لها المختوم بخاتم النور ». ثمَّ يصف ما وجدهُ في رومية والبلاد التي

عاينها من التعاليم الالهيَّة والاسرار المحيية » ولاسيما الخبز والخمر والسمكة الرمزيَّة التي اصطادتهـا عذراء طاهرة ». وفي ختام الكتاب « اعلانٌ لمن ينهك حرمة القبر بدفع جزاء قيمتهُ الفا دينار للدولة والف دينار لوطنهِ هيرابوليس »

فكل من درسوا هـذه الكتابة من كبار الاثريين اقرُّوا دون تلبُّث وتردُّد بانها افخر شاهد واسطع دليل على شرف النصرانيـة في القرون الاولى للمسيح وعلى صفاء تعاليمها وعظمة اسرارها ولاسيا على رئاسـة الكنيسة الرومانية العليا فوق كل كنائس المعمور اذ هي ملكة العالم النصراني وشعبهـا هو الشعب المختار المختوم بختام نور المعمودية اللامع

وقد حاول بعض اعداء الكنيسة ان يطفئوا ضياء هذه الكتابة فاخترعوا المزاعم الغريبة ليثبتوا انها ليست كتابة نصرانيَّة الَّا انَّ ائمَّـة الاثريين ألقموهم الحجر وفنَّـدوا كل آرائهم الواهية فلم يبقَ اليوم مسَّن يجاريهم في زعمهم الَّا المكابرون للحقّ

وكما افادتنا الكتابات الاثريَّة انتشار الكنيسة ووحدتها كذلك تجد فيها ادلَّة نيِّرة على ما قاستهُ الكنيسة من الاضطهادات والمصادرات سواء كان من قبل الوثنيين والقياصرة الذين مثَّلوا بهم وقتلوا منهم الالوف المؤلفـة كما تشهد عليهِ الكتابات الموجودة على مدافن شهداء الديامس وغيرهـا او من قبل البدع المخالفة التي ناصبت كنيسة المسيح فشذبت الكنيسة تعاليمها وحرمت زعماءها . وفي الكتابات الاثريَّة ما يدعم ذلك وقد وُجدت بين الكتابات عدَّة آثار لبدع الادريين (Gnostiques) وللمونتانيين وللمانويين والدوناتستيين وغيرهم تصف مناصبتهم لكنيسة المسيح ولتعاليم الاباء . وكلّ هذه البدع قد دخلت في خبر كان اذ لم تكن مبنيَّة على الصخرة البطرسية

ثالثاً الكتابات الاثرية وتعاليم الكنيسة

رأيت في ما سبق ما افادت الكتابات الاثريَّة لتعريف احوال الكنيسة في حياتها الخارجية وليست الافادات عن حياتهـا الداخلية دونها شأناً وهاك البرهان على ذلك

(دستور الايمان) معلوم انَّ دستور الايمان يقوم باعتقـاد الهٍ واحد في ثلاثة

اقانيم آب خالق لكل الموجودات وابن متجسد في احشاء بتول ليفدي البشر من تبعة خطيئتهم وروح قدس منبثق من كليهما. ثمّ اعتقاد كنيسة واحدة جامعة رسولية مع الايمان بالقيامة العتيدة

فكل هذه المعتقدات قد وردت في الكتابات الاثريّة على صور شتى تتّفق جوهرًا وتختلف عرضاً. فتوحيد الله لا يُحصى عدد الآثار التي تكرّر فيها ذكرهُ هكذا: « الله واحد هو. ليس الّا اله واحد. الله الواحد الصمد. الله الملك السرمدي » او على صورة الدعاء: « لله المجد. الهي ارحمني. ربّي أغثني. يا الله أجرني من العذاب. اللهمّ أنقذ شعبك. اذكرني يا ربّ في ملكوتك »

ومثلها عددًا الكتابات التي تذكر الثالوث الاقدس على هذا المنوال: « باسم الثالوث الاقدس. ما اعظم قدرة الثالوث الالهيّ. المجد للاب والابن والروح القدس »

واكثر منها عدًّا الكتاباتُ الواردة على اسم السيّد المسيح والمُعلنة بلاهوتهِ على هذه الصور: « اله واحد مسيح واحد. هو المسيح ابن الله. حيثما يحلُّ المسيح فاز الانسان بالسعادة. اختم يا ربّ هذا البيت بختمك وختم ابنك الالهيّ. هنا يسكن المسيح ابن مريم فابتعد يا ابليس. النصر والفوز للمسيح الاله. هذا مسكن المسيح المنتصر ومعهُ الايمان والرجاء والمحبّة. هو الفادي هو مخلّص العالم ». او يختصرون ذكر صليب الربّ هكذا: « فاز الصليب بالنصر. انتصر المسيح بصليبهِ. بازاء الصليب تسقط قوّة العدو. بهذه العلامة أنتصرُ على سائر اعدائي »

ومما تمتدّ ذكرهُ خصوصاً على مدافن المسيحيين ذكرهم للقيامة ورجائهم بالبعث في يوم الدين حتى لا يكاد يخلو منها قبر واحد في بعض الامكنة كبلاد غالية وغيرها على صور مختلفة. مثلاً: « هنا فلان راجي القيامة. سلام لفلان. ريثما يحظى بالقيامة. نِح يا ربّ فلاناً وأقمهُ في اليوم الاخير مع اوليائك. وعلّم جزًا

(الاسرار) الاسرار المقدّسة السبعة هي التي تحيي الايمان في قلوب النصارى وتستمدّ لهم النعم من الربّ. والكتابات النصرانيّة القديمة مملوءة من ذكرها وتعظيمها وعلى الخصوص سرّ المعموديّة وسرّ القربان الاقدس

فالمعموديّة ورد ذكرها في هذه الكتابات برموز عديدة فتارة يدعون النصرانيّ

العنّد « مؤمناً ومثبتاً بالايمان » وتارةً يصفونهُ بكونهِ « منوَّرًا » وحيناً يُدعى « مختوماً » اي بختم العماد او « مُنعَماً عليهِ » او « مطهَّرًا بماء العماد » ولا يذهلون عن ذكر معموديَّة الصغار انفسهم فيعلنون بانهم ماتوا « بعد قبول نعمة الله » وان توفي الميت لابساً ثوب العماد الابيض صرَّحوا بهِ في الكتابة المدفنيَّة

وكما تزهَّوا بذكر سرّ العماد كذلك ذكروا سرّ القربان الاقدس . وقد رأيت في كتابة ابرقيوس كيف اشار في كتابة قدمهِ اشارةً لطيفة الى هذا السرّ فروى « انَّ الايمان قد غذاهُ في كلّ البلاد التي حلّها بسمكةٍ كبيرةٍ نقيَّة اصطادتها عذراء طاهرة ليأكلها دون انقطاع اصحابها » ولا شكّ انَّ ابرقيوس نوى بذلك سرّ القربان وقد دعاهُ بالسَّمكة لأن السمكة كانت رمز السيّد المسيح وكثيرًا ما صوَّروها في الديماميس والمعابد النصرانيَّة وكانوا يجدون في خمسة حروفها اليونانيَّة (ΙΧΘΥΣ) خلاصة صفات المسيح اعني « يسوع المسيح الاله الابن المخلّص » . وقد سبق المشرق (٤ : ٦٧٣ — ٦٨١) واثبت فصلاً واسماً عن « سرّ الافخارستيَّة في العاديَّات المسيحيَّة بقلم القس بطرس عزيز (وهو اليوم مطران سلمست) فتحيل اليهِ القرَّاء ويجدون هناك عدَّة شواهد جليلة على ما ذكرنا من جملتها كتابة ابرقيوس في اصلها اليونانيّ .

وفي تلك العاديَّات اشارات الى بقيَّة اسرار الكنيسة كالتثبيت الذي كانوا يمنحونهُ مع المعموديَّة والتوبة والكهنوت وسرّ الزواج وان كان ذكرها اقلّ من ذكر المعموديَّة والقربان لقلَّة الدواعي الى ذكرها

(الطقوس البيعيَّة) ترتقي الى زمن الرسل جوهريًّا لكنَّ رؤساء الكنائس قد راعوا في ذلك الظروف المكانيَّة والزمنيَّة فكانوا على حسب احوال المؤمنين يتسمَّحون في الصلوات وضروب العبادات والنوافل لا سيما في المواسم السنويَّة والاعياد الحافلة مع حفظهم للاقسام الجوهريَّة التي تُرى حتى يومنا في كلّ الطقوس الشرقيَّة والغربيَّة . وفي الكتابات القديمة نصوص منقولة عن تلك الطقوس الشبيهة بالطقوس الشائعة في زماننا

وكثيرًا ما وردت تلك النصوص مصحوبةً باسم قدّيسين وشهداء يستمدّ اصحاب الكتابات شفاعتهم ويطلبون معونتهم وكانوا يجعلون في مدافنهم ذخائر اولئك الشهداء . وقد وجدوا في احد قبور نصارى القرن الرابع مع ذخائر للشهداء

قطعةً من صليب الربّ الذي اكتشفتهُ الملكة هيلانة امّ قسطنطين وذخائر اخرى من الاراضي المقدّسة (١ . وناهيك بذلك برهاناً على اكرام القديسين وذخائرهم في الكنيسة منذ اوائل النصرانيّة خلافاً لما زعم البروتستانت

ومن فوائد الكتابات النصرانيّة الماديّة انها تعرّفنا بكلّ النظام الكنسيّ وتعدّد كلّ درجاتهِ من القارئ البسيط والشمّاس الى أئمّة الاحبار . وكم افادتنا من اسماء اساقفة مجهولين لا يحصى عددهم وكم اثبتت من اسماء كراسيّ اسقفيّات في مدن صغيرة بل في بعض القرى . فمن يا تُرى كان يخيل لهُ بان بلدة صغيرة كمادبا التي لم تزد مساحتها عن ميل واحد مربّع كانت تحتوي عشر كنائس وكان يسوسها اسقف لولا اكتشاف الفسيفساء العجيبة التي وجدوها فيها منذ عهد قريب . وقس عليهِ بقيّة انحاء الدولة الرومانيّة

ومن فضل هذه الكتابات قد عُرف مقام رئيس الكنيسة جماء وسلطانهُ الاعلى على كلّ كنائس المعمور . وفي المشرق (٧ : ٥٧٧ — ٥٨٥ السنة ١٩٠٣) مقالة خاصّة للاب ل. جلابرت في وصف الماديّات المنبئة برئاسة القديس بطرس وخلفائهِ على كنيسة المسيح مع عدّة تصاوير جميلة فحسبنا الاشارة اليها حذراً من التكرار الممل

ومن درس الكتابات النصرانيّة التي نحن في صددها وقابل بينها وبين الكتابات الوثنيّة وجد ما كان للدين المسيحيّ من الفضل اذ غيّر وجه العالم بعد فسادهِ ورحض كلّ ارجاس الوثنيّة وادخل في الهيئة الاجتماعيّة كلّ الفضائل التي ترفع بقدر الانسان وتقدّس حياتهُ وحياة اسرتهِ وعيالهِ وتمدّ للوطن رجال فضل وفضيلة يفوقون على مشاهير رجال الوثنيّة كما تفوق الثريّا على الثرى . فانّ هذه الكتابات لا تصف فقط العيشة الرهبانيّة ونسك السيّاح بل تذكر الفضائل الاهليّة التي لم يكد يعرف الوثنيّون اسمها فضلاً عن جوهرها كالتواضع والوداعة والتُقى والعفاف وحبّ الاعداء والتفاني في سبيل المنكوبين وغير ذلك ممّا يعود فضل تعميمهِ بين البشر الى كنيسة المسيح وحدها

واخصّ ما يُستفاد من تلك الكتابات تجرُّد اصحابها عن هذا العالم واعراضهِ

(١ اطلب P. Monceaux: *Epigr. chr. d'Afrique*, n° 297, 317, 319

ومنذآته ليرفعوا بنظارهم الى دار البقاء حيث ينتظرون المجد الابديّ . ومن ثمّ لا يكترثون لاوجاع هذه الفانية ونكباتها ويغتبطون على مثال المسيح ضنك العيش وحمل الصليب ليحيوا معهُ الى الابد . وترى اصحاب تلك الكتابات يزدرون بالموت ويعدّونهُ كباب الخلود ويعتبرون المقابر كمنامات يرقدون فيها لزمن قصير

وكان بودّنا أن نؤيد كلّ ذلك بالشواهد المنقولة عن الكتابات الاثريّة لولا خوفنا من الاسهاب ومن اراد الزيادة أحلناهُ الى كتب عديدة وُضعت في تعريف العاديّات النصرانيّة في كلّ اللغات الاوربيّة والى مجلّات خاصّة تظهر في اوقات معلومة تفيد من كلّ اكتشاف جديد حتى اصبح علم العاديّات النصرانيّة فنًّا قائمًا بذاتهِ أقاموا لهُ في بعض الكليّات اساتذة من الاثريين ليدرّسوا اصولهُ وميزاتهِ وقوانينهُ ومحتوياتهِ الرحبة الافناء . ارشد الله اهل هذه البلاد الى تتبع اذهانهم بدرسها لا سيما العاديّات المكتشفة في بلادنا . فمن المستغرب ان يسبقنا الغرباء الى معرفة تاريخ بلادنا ومفاخرها ونحن نكاد نجهلها تمامًا

صندوقٌ اسرار صنه اعمال الاحرار

بقلم قوّال لبناني

كنّا انتهينا في كراريسنا عن الماسونيّة الى الجواب الماسونيّ ونقّضنا قمرهُ على أنّا عدلنا عن كوارعهِ مؤجلين النظر فيها لفرصة أخرى فسبقنا احد المبيّضين باحوال الشيمة وتقلّد مكنونات تلك الكوارع فوجد في الزوايا خبايا فأفاد مواطنيهِ عن مكتشفاتهِ ونظمها شعرًا من الشعر العاميّ اللطيف فاتحفنا بنسخة منهُ . وها نحن ننقل عنهُ قطعةً تنويهًا بفضل صاحبهِ المجهول . وهي تحتوي خبر صندوقهِ وجدها المفتش في ملحقات الكوارع تتضمّن كثيرًا من اعمال الماسون فانشد لا فُضّ فوه :

ل . ش

فتحتُ الصندوق باستعجالْ حظيت بعلبه من جفصينْ
فيها يسجلّ الاعمالْ مزركش بزرّد ثمينْ
فرحت ونزلوا دموع عيني وقلت تمّ المقدّرْ
بيظهر ربّي داعيني من قبل ما اتصوّرْ